المعهد العالمي للدراسات الاستراتيجية
GLOBAL INSTITUTE FOR STRATEGIC RESEARCH
عضو في جامعة حمد بن خليفة
Member of Hamad Bin Khalifa University

إيران وإفريقيا بعد الحرب الإسرائيلية: تحوّلات النفوذ وحدود التمدد في فضاءٍ متنازعٍ عليه

لم تَعُد القارة الإفريقية مجرّد ساحة خلفية في معادلات القوى الدولية، بل تحوّلت خلال العقدين الأخيرين إلى ميدانٍ مفتوح لإعادة تشكيل موازين النفوذ العالمية. فهي قد تحوّلت اليوم لدى الفاعلين الدوليين والإقليميين من واشنطن إلى بكين، ومن موسكو إلى طهران الى فضاء جيوسياسي خصب تتقاطع فيه المصالح الإستراتيجية والرهانات الأيديولوجية، وتتداخل فيه اعتبارات الأمن، والطاقة، والشرعية الدولية. في هذا السياق، شكّلت إفريقيا بالنسبة لإيران منذ الثورة عام 1979 بُعدًا إستراتيجيًّا مكمِّلًا لمشروعها الخارجي القائم على توسيع نطاق حضورها في الهامش الدولي كوسيلةٍ لكسر الطوق الغربي وخلق مجالات نفوذ بديلة. غير أنّ هذا التمدد ظلّ محكومًا بعوامل متناقضة؛ فمن جهةٍ، سعت طهران إلى استثمار الخطاب المناهض للاستعمار والمواقف الرافضة للهيمنة الغربية لتعزيز موقعها في الوعي الإفريقي، ومن جهةٍ أخرى، واجهت قيودًا سياسية وأمنية ودينية كبحت قدرتها على التحوّل إلى فاعل مؤثر بالمستوى الذي حققته قوى أخرى كالصين وتركيا.

لكنّ الحرب الإسرائيلية الأخيرة على إيران وما انبثق عنها من تحوّلات في البيئة الإقليمية، قد فتحت فصلًا جديدًا في حضور طهران داخل القارة السمراء. إذ باتت إفريقيا أكثر انفتاحًا على الخيارات غير الغربية، وأكثر حساسية تجاه ازدواجية الخطاب الغربي، ما يمنح إيران نافذة جديدة لإعادة التموضع عبر البوابة الإفريقية. في المقابل، تواجه طهران تحديات بنيوية في ترجمة خطابها الثوري إلى نفوذٍ ملموس، في ظلّ التنافس الحاد بين القوى الكبرى والإقليمية على موارد القارة وممراتها الإستراتيجية.

أوّلا: تحولات الرؤية الإيرانية لإفريقيا: من الثورة إلى كسر العزلة الإستراتيجية

تُعدّ العلاقة بين إيران والقارة الإفريقية علاقةً متجذّرة، لكنها لم تكن يومًا ذات طابع ثابت أو مسارٍ مستقرّ. فمنذ ما قبل ثورة 1979م، كانت المصالح الإيرانية في إفريقيا تتركّز في الأطر الاقتصادية والسياسية التقليدية، إذ تعاملت طهران في عهد الشاه مع القارة بوصفها فضاءً للفرص التجارية والطاقة، وامتدادًا لعلاقاتها مع الغرب. غير أنّ التحول الجذري الذي أحدثته الثورة الإسلامية نقل هذه العلاقة إلى مستوى أيديولوجي جديد، إذ تحوّلت إفريقيا في المنظور الإيراني إلى ساحة لتصدير خطاب الثورة وتشييع السكان في مواجهة الهيمنة الإمبريالية، خصوصًا عبر دعم حركات التحرر والمقاومة، وإنشاء مراكز ثقافية ودينية وتعليمية هدفت إلى بناء قاعدة اجتماعية متعاطفة مع المشروع الإيراني في دول غرب إفريقيا والساحل.

ومع مجيء الرئيس محمود أحمدي نجاد 2005–2013م، اتّسع هذا التوجّه ليأخذ شكل دبلوماسية هجومية نحو الجنوب العالمي، حيث سعت طهران إلى ترسيخ حضورها في القارة كأداةٍ لمواجهة العزلة الدولية الناتجة عن العقوبات الغربية، عبر اتفاقيات في مجالات الطاقة، والبنية التحتية، والتعليم، والدفاع. هذه المرحلة مثّلت ذروة التوظيف السياسي لإفريقيا بوصفها بوابة للالتفاف على منظومة العقوبات الدولية وإعادة بناء شبكة دعم دبلوماسي في المحافل الأممية.

أما في عهد الرئيس حسن روحاني 2013–2021م، فقد شهدت السياسة الإيرانية تجاه إفريقيا تحوّلًا نحو البراغماتية الاقتصادية والدبلوماسية الهادئة، إذ جرى تخفيف النزعة الأيديولوجية والتركيز على المصالح المتبادلة، خاصة مع دولٍ مثل نيجيريا وجنوب إفريقيا. غير أنّ هذا النهج البراغماتي ظلّ محدود التأثير بسبب استمرار الضغوط الغربية وتضاؤل القدرة الاقتصادية الإيرانية على تنفيذ وعودها الاستثمارية.

ثم جاء عهد الرئيس إبراهيم رئيسي 2021–2024م ليعيد البُعد الجيوسياسي إلى الواجهة. ففي ظل التصاعد الحادّ في التنافس الإقليمي داخل القارة بين إسرائيل ودول الخليج وتركيا، سعت طهران إلى إعادة التموضع عبر خطاب "مناهضة التطبيع" ومواجهة التغلغل الإسرائيلي في إفريقيا .وقد مثّلت الجولة الإفريقية النادرة للرئيس الإيراني النادرة إلى كينيا وأوغندا وزيمبابوي مؤشّرًا على رغبة إيران في إعادة تفعيل الجغرافيا الإفريقية كامتداد لنفوذها في الشرق الأوسط، سواء عبر تعزيز الروابط مع دول معزولة غربيًّا أو عبر فتح أسواق بديلة في ظل العقوبات.

المعهد العالمي للدراسات الاستراتيجية
GLOBAL INSTITUTE FOR STRATEGIC RESEARCH
عضو في جامعة حمد بن خليفة
Member of Hamad Bin Khalifa University

ومع ذلك، تبقى السياسة الإيرانية في إفريقيا رهينة ثلاث محددات رئيسية وهي:

- التنافس الجيوسياسي المكثف، حيث تواجه إيران حضورًا قويًّا لخصومها الإقليميين والدوليين، مثل إسرائيل والإمارات والسعودية والصين وروسيا وتركيا والولايات المتحدة، مما يحدّ من قدرتها على بناء تحالفات طويلة المدى.
- التركيبة الديموغرافية والدينية الإفريقية إذ يُمثّل انتشار الإسلام السني والمسيحية عقبة أمام محاولة طهران توسيع دوائر نفوذها المذهبي أو الثقافي.
- القيود الاقتصادية البنيوية فإيران رغم امتلاكها موارد الطاقة، تعاني من ضعف القدرة التمويلية والتقنية نتيجة العقوبات، مما يجعل مبادراتها في إفريقيا أقرب إلى دبلوماسية رمزية لا تُترجم إلى مشروعات واقعية مستدامة.

وبناء على ذلك، يمكن القول إنّ إيران في إفريقيا ليست لاعبًا جديدًا بقدر ما هي فاعلٌ قديم يسعى لإعادة اكتشاف القارة في سياقٍ جيوسياسي متغيّر، حيث تمثّل إفريقيا بالنسبة لطهران ساحةً لاختبار قدرتها على كسر الطوق الغربي، لكنها في الوقت ذاته مرآةٌ تُظهر حدود القوة الإيرانية خارج محيطها الإقليمي.

ثانيا: التمدد الإيراني في إفريقيا بين الفراغ الغربي واستراتيجية تصدير النفوذ

تسعى إيران في السنوات الأخيرة إلى إعادة صياغة حضورها الإفريقي ضمن رؤيةٍ أوسع ترتبط بتغيّر موازين القوى في النظام الدولي وبروز الفراغ الاستراتيجي الناتج عن تراجع النفوذ الغربي، خصوصًا الفرنسي، في غرب ووسط القارة. هذا التحوّل البنيوي في البيئة الإفريقية يوفّر لطهران فرصة نادرة لبناء شبكات نفوذ سياسية وأمنية وأيديولوجية، مستفيدةً من تنامي نزعة التحرر من الوصاية الغربية لدى العديد من العواصم الإفريقية. ورغم أن الحضور الإيراني في القارة ما زال محدودًا مقارنةً بالفاعلين الكبار مثل الصين وروسيا وتركيا، فإن طهران تتحرك وفق مقاربة مزدوجة تجمع بين أدوات الدولة الرسمية وأذرعها غير النظامية، في محاولة لتكييف نموذج تصدير الثورة مع الواقع الإفريقي المتحوّل.

تركّز طهران على شرق القارة الإفريقية، وتحديدًا على القرن الإفريقي، بوصفه مدخلًا استراتيجيًا لتوسيع حضورها البحري والأمني خارج الخليج العربي. وقد

برزت مؤشرات ذلك في النشاط الإيراني المتزايد في موانئ مصوع وعصب الإريترية وبورتسودان، حيث يشتبه في استخدامها كمحطات دعم لوجستي وإمداد للسفن الإيرانية التي تؤمّن خطوط الإمداد إلى الحوثيين في اليمن وتوفر قدرًا من حرية الحركة لطهران في البحر الأحمر. وفي المقابل، اتخذت إيران من دبلوماسية التسليح أداة لاختراق الدول الهشّة أمنيًا، كما حدث في إثيوبيا أثناء حرب تيغراي عام 2021 عندما زوّدت أديس أبابا بطائرات بدون طيار من طراز مهاجر6، ما كشف عن رغبتها في اختبار أسواق جديدة لصناعاتها الدفاعية. وتعد جنوب إفريقيا حلقة استراتيجية أخرى في هذا المسار، حيث وقّع البلدان اتفاقيات تعاون دفاعي تسمح لطهران بالوصول إلى خبرات بحرية وصناعية متقدمة وتوسيع مدى نفوذها نحو المحيط الهندي وجنوب الأطلسي.

في البعد الناعم، تتبع إيران سياسة ثقافية ودينية تهدف إلى بناء عمق اجتماعي طويل الأمد داخل المجتمعات الإفريقية. فبدلًا من التركيز المباشر على تصدير الثورة بالمعنى الأيديولوجي الصارم، تطورت المقاربة الإيرانية نحو ما يمكن تسميته بـ تصدير النفوذ عبر أدوات ثقافية وتعليمية منظمة، تقودها مؤسسات مثل منظمة الثقافة والاتصال الإسلامية، التي تنشط في نيجيريا وغانا وكينيا وأوغندا وجنوب إفريقيا. تهدف هذه المؤسسات إلى خلق نخب ثقافية ودينية متعاطفة مع إيران، وهو ما يجعل المجتمع الشيعي الإفريقي أحد أبرز أذرع طهران غير الرسمية في القارة. ففي نيجيريا وحدها يُقدَّر عدد الشيعة بنحو خمسة ملايين، يتأثر جزء كبير منهم بخطاب المقاومة الإسلامية ورفض الهيمنة الغربية، ما يمنح إيران رأسمالًا رمزيًا ودينيًا ذا طابع سياسي يمكن توظيفه في أوقات الأزمات الإقليمية.

إدراك طهران لتراجع قدرتها على المنافسة في الشرق الأوسط دفعها للبحث عن هوامش جغرافية بديلة تُكسر من خلالها طوق العزلة الغربية وتُعيد إنتاج صورتها كقوة جنوبية مناهضة للهيمنة. إفريقيا في هذا السياق ليست فقط سوقًا اقتصادية أو مسرحًا دعائيًا، بل امتدادًا لنظام الممانعة الإيراني في مواجهة الولايات المتحدة وإسرائيل. ومن هذا المنطلق، تتحالف إيران مع دول إفريقية تميل للخطاب المناهض للغرب مثل الجزائر وتونس وجنوب إفريقيا، وتستفيد من تقاطع مصالحها مع موسكو وبكين في الدفع نحو نظام دولي "متعدد الأقطاب"، حتى وإن لم يكن هذا التقاطع خاليًا من التنافس أو التناقض. ورغم الزخم السياسي والإعلامي الذي رافق زيارات الوفود الإيرانية إلى عدد من العواصم الإفريقية وتوقيع اتفاقيات اقتصادية وعسكرية، فإن النفوذ الإيراني لا يزال هشًا ومحدود القدرة على التوسع المستدام. فالعقوبات الغربية تُقيد إمكانياتها المالية واللوجستية، كما أن المنافسة الروسية الصينية في إفريقيا أكثر رسوخًا ومؤسسية. غير أن الرمزية الثورية التي توظفها طهران تمنحها هامشًا من التأثير في الرأي العام والنخب الإفريقية، خاصة

في الدول التي تعيش مرحلة ما بعد الاستعمار الفرنسي، حيث يتقاطع الخطاب الإيراني المعادي للغرب مع المزاج الشعبي الباحث عن استقلال القرار الوطني.

وتتحرك إيران في إفريقيا ضمن استراتيجية طويلة الأمد تهدف إلى تحويل القارة إلى عمق استراتيجي لمشروعها الإقليمي، مستفيدة من تراجع الغرب وتبدل أولويات الولايات المتحدة في القارة. لكن هذا التمدد يظل نوعيًا أكثر من كونه كميًا، يعتمد على شبكة تحالفات أيديولوجية ودينية أكثر من اعتمادِه على أدوات الدولة الصلبة. وفي ظل تسارع التحولات الجيوسياسية العالمية، قد تشكّل إفريقيا خلال العقد القادم ساحة اختبار لقدرة إيران على التحول من قوة إقليمية آسيوية إلى فاعل عابر للأقاليم، وإن كان ذلك سيبقى مرهونًا بمدى قدرتها على موازنة علاقاتها مع موسكو وبكين من جهة، وتجنّب الصدام المباشر مع المصالح الغربية من جهة أخرى.

ثالثا: ما بعد الحرب الإسرائيلية الإيرانية، إفريقيا كساحة لإعادة تموضع النفوذ الإيراني

بعد الحرب الإسرائيلية على إيران في يونيو المضي، والعدوان على غزّة، واضعاف حزب الله في لبنان، وسقوط نظام بشّار الأسد في سوريا، تغيّر المشهد الأمن الإقليمي في الشرق الأوسط، وفتحت مرحلة جديدة من التفاعلات الجيوسياسية تتجاوز حدود الإقليم إلى فضاءات أبعد، وفي مقدمتها القارة الإفريقية. فالهجوم الإسرائيلي الواسع الذي استهدف المنشآت النووية والمنظومات الصاروخية الإيرانية، وما تبعه من ردٍّ إيراني مكثّف عبر أكثر من 150 صاروخًا باتجاه الأراضي الإسرائيلية، لم يكن مجرد مواجهة عسكرية محدودة، بل مثّل اختبارًا حاسمًا لموقع إيران في معادلة الردع الإقليمي وقدرتها على الصمود أمام القوة الإسرائيلية الأمريكية المزدوجة بعد فقدان طهران لحلفاء لهم وزن في المعادلة الأمنية بالمنطقة.
في هذا السياق، وجدت طهران نفسها أمام واقع جيوسياسي جديد يفرض إعادة توزيع لمراكز ثقلها الإقليمي والبحث عن هوامش نفوذ بديلة، فكانت إفريقيا أحد أبرز المسارح المرشحة لاحتضان هذا التمدد. فالقارة السمراء، التي تشهد تراجعًا واضحًا للنفوذ الغربي وتناميًا للحضور الروسي والصيني والتركي، تبدو لطهران بيئة مواتية لبناء شبكات شراكة اقتصادية وعسكرية وثقافية، خصوصًا مع تنامي المواقف الإفريقية المناهضة لإسرائيل بعد حرب غزة، والتي عبّرت عنها بوضوح مبادرة جنوب إفريقيا في رفع دعوى إبادة جماعية ضد إسرائيل أمام محكمة العدل الدولية عام 2023. لقد تآكلت صورة إسرائيل في الوعي الإفريقي بشكل ملحوظ،

المعهد العالمي للدراسات الاستراتيجية
GLOBAL INSTITUTE FOR STRATEGIC RESEARCH
عضو في جامعة حمد بن خليفة
Member of Hamad Bin Khalifa University

ليس فقط بسبب ما جرى في غزة، بل أيضًا بسبب انكشاف هشاشة قوتها خلال المواجهة مع إيران، إذ أظهرت الحرب أن تل أبيب تعتمد اعتمادًا شبه مطلق على الدعم الأمريكي العسكري والاستخباري، ما جعلها في نظر العديد من الدول الإفريقية قوة محدودة التأثير خارج الغطاء الغربي. هذا التحول الرمزي يمنح إيران فرصة لتعزيز حضورها السياسي والأيديولوجي في القارة، من خلال تقديم نفسها كقوة مناهضة للهيمنة، تدعم حق الشعوب في التحرر الوطني، وهي رسالة تتناغم بعمق مع الذاكرة التاريخية الإفريقية المناهضة للاستعمار.

من جهة أخرى، تشير قراءات مراكز الأبحاث الإفريقية إلى أن إيران، بعد الحرب، باتت أكثر ميلًا لتوظيف القارة الإفريقية كأداة لكسر العزلة الدولية المفروضة عليها. فهي ترى في إفريقيا فضاءً يمكن من خلاله كسب الأصوات في الأمم المتحدة، وتأمين خطوط بحرية بديلة لأسطولها في البحر الأحمر والمحيط الهندي، فضلًا عن إيجاد أسواق لمنتجاتها الدفاعية والطاقية. وتزداد أهمية هذا التوجه في ظل ما أحدثته الحرب من ضغط اقتصادي على الداخل الإيراني وضرورة تنويع الشراكات لتخفيف آثار العقوبات وتجديد مصادر الدخل. وتُدرك طهران أن البيئة الإفريقية الجديدة التي تتسم بتراجع الالتزامات الأمريكية والفرنسية، وازدياد التنسيق بين موسكو وعدد من الأنظمة الإفريقية تمثل لحظة نادرة للتموضع الجيوسياسي. فبعض العواصم الإفريقية لم تعد تخضع كما في السابق للضغوط الغربية التي كانت تُقيّد علاقاتها بطهران. وتجد إيران في ذلك مساحة لتعزيز التعاون الأمني والعسكري، لا سيما مع دولٍ مثل الجزائر، وجنوب إفريقيا، والنيجر، وإثيوبيا، التي تشترك معها في مواقف سياسية مستقلة عن المحور الغربي.

لكنّ الرهان الإيراني على إفريقيا لا يخلو من تحديات. فالقارة ليست ساحة فراغ، بل فضاء تنافسي مكتظ بالفاعلين الدوليين والإقليميين. كما أن الدول الإفريقية نفسها باتت تمارس سياسة موازنة استراتيجية، تذكّر بفترة الحرب الباردة حين كانت العواصم الإفريقية ترجّح بين واشنطن وموسكو وفقًا لمصالحها. وهذا يعني أن انفتاحها على إيران لن يكون بلا مقابل، بل مشروطًا بمكاسب تنموية واستثمارية ملموسة، وهو ما يصعب على طهران تقديمه في ظل أزماتها الاقتصادية. من زاوية أوسع، تمثّل إفريقيا بالنسبة لإيران اليوم مساحة لإعادة بناء صورة القوة بعد الضربات التي تلقّتها بنيتها العسكرية في الحرب مع إسرائيل. فالقارة تمنحها فرصة لاستعراض قدراتها الدفاعية عبر تصدير الطائرات المسيّرة والذخائر والصواريخ قصيرة المدى إلى حكومات تواجه تمردات أو حروبًا داخلية، كما تمنحها هامشًا دبلوماسيًا لتأكيد حضورها في المنظمات الإقليمية والدولية من خلال التحالفات التصويتية مع الدول الإفريقية. ومع ذلك، تبقى المفارقة الأساسية أن حاجة إيران

إلى إفريقيا أكبر من حاجة إفريقيا إلى إيران. فبينما تسعى طهران إلى تضميد جراحها الاقتصادية والعسكرية وتوسيع نطاق نفوذها في الجنوب العالمي، تتعامل العواصم الإفريقية ببراغماتية متزايدة، تبحث عن الاستفادة من تنافس القوى الكبرى دون الانخراط في محاور أيديولوجية. ولذلك، فإن مستقبل الوجود الإيراني في إفريقيا سيتوقف على قدرة طهران على التحول من الفاعلية الرمزية إلى النفوذ المؤسسي، ومن الخطاب الثوري إلى الشراكة التنموية الواقعية.

فما بعد الحرب الإسرائيلية الإيرانية ليس مجرد مرحلة استراحة لطهران، بل لحظة لإعادة هندسة علاقاتها الخارجية. وإذا ما أحسنت قراءة التحولات الإفريقية، فقد تجد في القارة السمراء رئة استراتيجية تتنفس من خلالها خارج الشرق الأوسط. أما إذا واصلت توظيف إفريقيا كأداة دعائية ودعويّة شيعية فقط، فستبقى حاضرة في المشهد الإفريقي بقدر ما تبقى الحرب ذاتها في الذاكرة الإقليمية حدثًا صاخبًا بلا بنية دائمة.